المورد

مجلّة تراثيّة فصليّة محكّمة

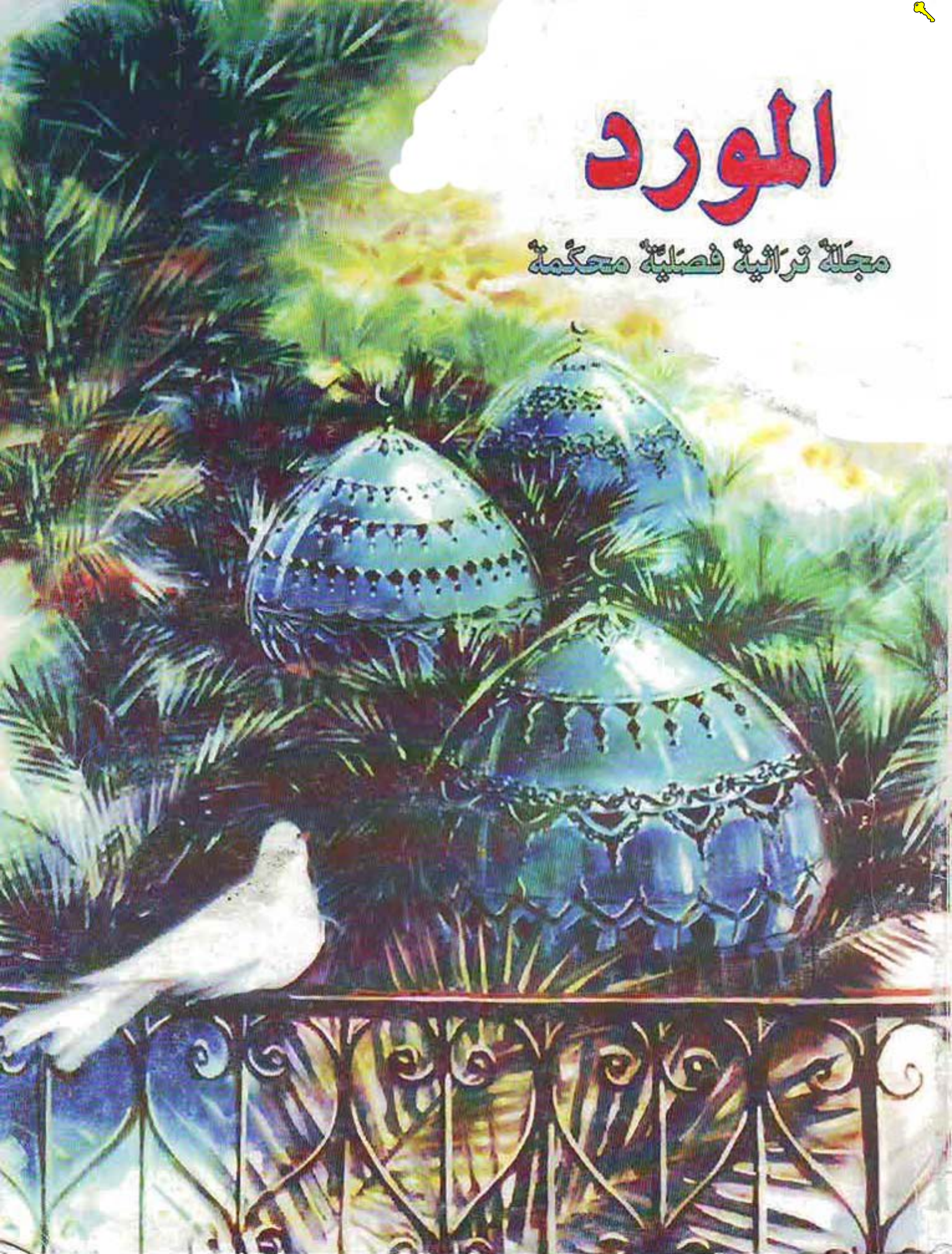

في فلسفة التاريخ النقدية

للدكتور جميل موسى النجار

عرض واختصار: نجلة محمد مجيد

ظهر الان في اسواق الكتب كتاب ((في فلسفة التاريخ النقدية)).. وهو من عيون نشريات دار الشؤون الثقافية العامة.. معرفة علمية، وطاقة من الاسلوب الرصين المتزن، ودراسة واعية لحركات الفكر التاريخي النقدي، وادراكاً لمراحل فلسفة التاريخ ومناهجه النقدية..

كل هذا تجشم المؤلف العالم جمعها وتحليلها وتمحيصها في هذا الكتاب المجلي تماماً على غرار جهوده على الساحة الفكرية التاريخية النقدية التي كان على ((تماس متصل معها ومع مباحث هذا الكتاب من خلال تدريسه اياها في الجامعات ونشرياته في المجلات العلمية المحكمة)). سنين عديدة.

لا اجد مندوحة من استعراض الكتاب باختصار (مداراة) لمحدودية الحقل المخصص له. ولن كان ذلك لا يحقق تطلعاتي. فان قراءة الكتاب من اوله الى آخره والاستزادة من التمتع ((بالمعلومات الطريفة الدالعة والمتع الذهنية فيه والرؤى الفلسفية والمفارقات والمقارنات الفكرية، محصول معرفي يتكفل بالتهسط والتعمق والشمول لا يمنحه الاختصار ولا ابدائيه.

الكتاب مقسم على ثلاثة ابواب الاول في اثبات البحث.. منظور تطويري للمنهج، وهو يتضمن اربعة فصول الاول عن التعليل التاريخي.. الاساس المنطقي والابعاد المنهجية، فيدور معنى التعليل حول تبيين علل الاشياء والظواهر اي توضيح اسبابها اذ ان للعلة من كل شيء هي سببه..)) فان البحث عن الاسباب الحقيقية للاحداث يقتضي من المؤرخ ان يتحرى الظروف التي احاطت بتلك الاحداث وطبيعة الحقبة الزمنية التي سبقتها. ذلك ان احداث التاريخ ترتبط مع بعضها ارتباطاً عضوياً وثيقاً...))

وكان عنوان الفصل الثاني الفرض والبرهان في البحث التاريخي.. اذ ((تشكل الفروض مرحلة اساسية من مراحل المنهج الاستقرائي وهي مرحلة تالية للملاحظة والتجربة وسابقة لمرحلة التوصل الى وضع القانون العام)).. ((فالفرض هو تكهن الباحث عقب انتهائه من ملاحظاته وتجاربه بحقيقة العلاقة بين علل الظواهر واسبابها))

ثم تحدث عن اثر الفرض في منهج البحث التاريخي وشروط الفرض العلمي والتاريخي. والتحقق من صحة الفرض العلمي، ثم التطبيق على الفرض التاريخي والبرهان التاريخي وجاء الى طريقتي البرهان وهما سلبية وايجابية حيث ترتكز الاولى الى حالة سكوت المصادر عن ذكر حادثة معينة فيفترض الباحث على اساس هذا السكوت عدم حدوثها.. اما الثانية فتتمثل في البرهنة على فرض بحدوث واقعة تاريخية.. من خلال استنباطها من واقعة تاريخية اخرى.

اما الفصل الثالث فكان بعنوان الحتمية والصدفة و ((القول بالحتمية يتطرق الى تفسيرات الفلاسفة وبعض المؤرخين لمسار التاريخ العام والحضارات التي تقوم على استقراء التاريخ وملاحظة احداثه الكبرى والجزئية..)) وفصلها لدى هيغل وفيورباخ وماركس وانتقل الى الصدفة)) بودي لو سماها (مصادفة) لا كما هو شائع خطأ وقال ان تعريفها عند القدماء والمحدثين من الفلاسفة هي الاحداث المجهولة العلة او التي لا علة لها.. وان مفهومها يرتبط فلسفياً وعلمياً بنظرية الاحتمال وقال ان لمفاهيم الصدفة انعكاسات على منهج البحث التاريخي وفصل في رؤية مونتسكيو لها رؤية المثاليين والوضعيين وخلص الى ان للصدفة نصيباً في فلسفة العلوم الطبيعية كما لها نصيب في فلسفة التاريخ النقدية.. ثم يأتي الى الفصل الرابع المعنون التحقيب التاريخي الذي يمثل مرحلة متقدمة في الفكر التاريخي وفسر معنى التحقيب اي التقسيم على حقب كما تطرق الى طرقه واسسه ومفهومه الهيكلي ومقدار عمر الدول والامبراطوريات بمقياس القرون والعقود والاعوام، ثم وصل الى التحقيب الاطواري وهو توجه قديم يعود الى هسيودوس الشاعر اليوناني الذي عاش في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد، الذي قسم العصور الى ذهبية وفضية وبرونزية وحديدية ووصل الى التمثل العربي وتداخل المفاهيم فبحث وناقش ما جاء به الدكتور كمال مظهر والدكتور مرتضى التقيب والدكتور عبد العزيز الدوري ثم وصل الى تحقيب التاريخ العربي وفصل في تحديد حقبة ميلاد الرسول وهجرته في مداقشة رصينة هادئة طويلة، حتى وصل الى عنوان من التحقيب الى الهيكلة وفصل طريقة روزوف المقترحة في تحقيب العالم وهيكلته ويبدو ان مؤرخنا يفضلها على غيرها.

ثم ذاتي الى الباب الثاني وهو النقد وتقويم الموضوعية التاريخية وفيه يتناول الباحث النقد في الفكر التاريخي العربي الاسلامي حتى عصر ابن خلدون وهو كما يرى ان تطوراته بلورت منظوراً ذا افق واسع للفكر التاريخي عامة وللنقد التاريخي بوجه خاص ومضى الى عنوان الاسلام والفكر التاريخي عند العرب فتكلم على نشأة التاريخ عند العرب وعوامل نشوئها وملها ظهور الاسلام واخبار الفتوحات وتدوين الانساب وغيرها كالاهتمام بمعرفة تاريخ الانبياء والامم السابقة.

وتحت عنوان نشأة التاريخ البواعث والاتجاهات حدد توجه المسلمون نحو التاريخ وتدوينه في الاهتمام بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والاقتداء بها مع بواعث اخرى فرضتها مستجدات حياتهم في ظل الاسلام.

ثم حدد تحت عنوان بدايات النقد التاريخي بأن مرحلة تكوين التاريخ الاسلامي بدأت في اواخر القرن الاول للهجرة وان اصطلاح (الجرح والتعديل) يقابله اليوم فقد الامانة والدقة أو النقد الباطني السلبي.. ويصل بنا الى موضوع تطور التاريخ وتوسع أفاق النقد وبعد القرن الرابع الهجري العصر الذهبي للحضارة العربية الاسلامية الذي تميز ببروز عدد من المؤرخين فاق عدد اقرانهم في القرنين الخامس والسادس. وعدد لمعهم كالمسعودي والجهشواري وغيرهم واشار الى ان الاعمال

التاريخية ازدادت وتحسنت موضوعيا منذ اواخر القرن السادس حتى منتصف القرن السابع.. وناقش برزبة واضحة كيف سرت روح النقد العقلي لمضمون الاخبار واورد اسم ابن الاثير واليعقوبي.. وختم الفصل بقوله ان افق النقد التاريخي المحدود وغير المتقن شهد التطور من خلال الفكر التاريخي الخلدوني في القرن الثامن الهجري... وينتقل بنا الى الفصل الثاني و هو بعنوان النقد التاريخي في الفكر الغربي الحديث حتى نهاية القرن التاسع عشر وبدأ ((اولاً ــ التاريخ في اوربا، القرون الوسطى)) التي لم تعرف خلال القرون الوسطى الممتدة نحو الف عام تدويناً تاريخياً قائماً على اسس صحيحة غير الصكوك والعقود ووثائق عن الاحداث "رمنية المهمة التي كانت مادة لكتابة التاريخ ابتداءً من عصر النهضة حيث ((النهضة الاوربية وبدايات النقد التاريخي)). في عصر النهضة شهدت اوربا تحولات حذرية في مجمل تكوينها الحضاري قادت العرب فيما بعد الى تحقيق انجازات كبيرة في مجال المعارف والعلوم..

والاهم من ذلك كله الذي يشكل محور هذه الدراسة ظهور النقد التاريخي ثم عنوان جديد هو ملامح التنظير للنقد التاريخي وظهور اكبر المفكرين كبيكون وديكارت في القرن السابع عشر.. ثم بنا يصل تسلسل الموضوع الى التاريخ والنقد التاريخي التنويري وكان جيوفاني اول من تعامل في القرن الثامن عشر مع احداث التاريخ بنظرة فلسفية وبعده جاء فلاسفة التنوير مونتسكيو وفولتير وادوار غيبون المشهور بكتابه (تاريخ اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها) ومع ذلك لم يتمكن عصر التنوير ان يصل بالتاريخ الى قاعات الدرس الجامعي كعلم له اهميته.. ومع (تطور منهج البحث والنقد التاريخيين في القرن التاسع عشر) الا ان المؤرخين لم يتوصلوا الى بلورة منهج متكامل للبحث التاريخي... وتصل بنا المسيرة الى الفصل الثالث بعنوان الذاتي والموضوعي في البحث التاريخي ويمنهله بكلام يربط الفكر التاريخي الغربي الذي بلور منهجاً متكاملاً للدراسات التاريخية في اواخر القرن التاسع عشر اي مع مسيرة اوربا الفكرية في العصور الحديثة.. وظهرت الاراء المعاصرة في منهج البحث العلمي وفلسفة العلوم، وما انتهى اليه المؤرخون ان التاريخ علم له منهج خاص يتبع في دراسته وبحث موضوعاته واصبح الاتجاه العام للفكر الفلسفي و التاريخي المعاصر يضفي صفة العلم على التاريخ..

ويمضي بنا عنوان الذاتي والموضوعي الى تفصيل العمل الذاتي ومرحلة العمليات التركيبية وتوضيح معنى الذاتية والموضوعية بوصفهما مصطلحين فلسفيين متعلقين بنظرية المعرفة وتصل بنا موضوعية جديدة هي ان تقدم العلم الحديث قاد في اوائل القرن العشرين الى زعزعة الموضوعية المطلقة لعلوم الطبيعة وخاصة الفيزياء، وكان لظهور البنيوية مذهباً فلسفياً شاملاً قام استبدال التاريخ التقليدي (المسمى التاريخ الحدثي) بنوع جديد يدعى بالتاريخ المفهومي تكون مهمته اعادة النظر ببنية ودلالة الحدث من خلال اقامة علاقة جديدة بينه وبين المؤرخ اي ان التطور المعرفي للتاريخ المعاصر يقوم على اساس من طبيعة الممارسة المنهجية التي يضعها المؤرخ..

ونواصل قراءتنا فنصل الى الباب الثالث فلسفة النقد ــ يتصدى الفصل الاول الى التعريف بابن خلدون وحياته وعمله ورحلته العلمية والعملية ثم فكره في مقدمته الشهيرة التي هي مقدمة كتابه (العبر) التي لولاها الباحثون عنهم بكتب ومقالات ورسائل جامعية بلغ مجموعها (٢٧٦) دراسة عربية واجنبية.

والمقدمة تتألف من افتتاحية اوضح فيها ابن خلدون اوجه النقص في كتب المؤرخين السابقين ثم مقدمة ((في فضل علم التاريخ)) ثم يأتي الكتاب الاول بفصوله الستة الاولى في العمران البشري والثاني في العمران البدوي و الثالث في الدول و الرابع في السلطان و الخامس في المعاش و السادس في العلوم و اصنافها و بعض البحث حتى يوافينا عنوان ((ابن خلدون فيلسوف تاريخ)) ونظرية العصبية والدولة ــ عرض مجمل.

ويختتم البحث عنوان ابن خلدون وفلسفة التاريخ النقدية، التي تقترب من معنى فلسفة التاريخ التأملية المعاصرة ولذا فيحق لنا ان نقول: ان ابن خلدون كان رائد فلسفة التاريخ.. وينتقل الى الفصل الثاني المنهج الخلدوني وموقعه من منهج البحث التاريخي الحديث وعد ابن خلدون مؤرخاً بالدرجة الاولى ومؤرخاً متحيراً لما في تاريخه من اراء فكرية نقدية ثاقبة.. على ان المؤلف اخذ عليه غموض كثير من افكاره وعدم دقتها ثم عرضه غير المنظم للاراء والافكار التي تشكل في مجموعها منهجاً للبحث التاريخي، ثم يأتي الى الاسس التي تكون في محملها منهجاً للبحث التاريخي في اخطاء المؤرخين وتلفيق بعضهم للاخبار التاريخية وقسم المؤرخين العرب الى طبقات الاولى الفحول والثانية طبقة المتطفلين والثالثة كثير من المؤرخين الذين نقدهم نقداً لاذعاً لانهم دونوا التاريخ واعتمدوا على سابقيهم فنقلوا عنهم دون تمحيص.. ثم الرابع المؤرخين الذين قام منهجهم على الاختصار المخل في تدوين لتاريخ..

واوضح المؤلف الكريم ان هذا التقسيم تعوزه دقة الملاحظة ووضوح العرض وسلامة التسلسل.. ثم اشبع الموضوع بحثاً بعنوان المنهج الخلدوني عرض ومقابلة.

وجاء الى موضوع النقد الخلدوني المقابل للنقد الباطني و المعيار الخلدوني للحقائق التاريخية وتنظيم الحقائق التاريخية وتركيبها وتعليلها.. ثم ينهي المؤلف هذا الفصل الطويل بالتحليل و النقد بقوله ((انه كان تناولاً مقتضباً.. وانه منطلق لمن يريد التوسع او لمن تكون له وجهة نظر اخرى..))

ثم ينتهي الكتاب بالفصل الثالث. ((الفلسفة النقدية بين التنظير و التطبيق)) واستهله بان تاريخنا العربي يحتاج الى كثير من احداثه واساليب تدوينه الى مراجعة تكشف عن حقيقة الاحداث وتبرز مواضع الاخطاء التي شابت عمل المؤرخين سهواً أو عمداً..)) وتحت عنوان ((المؤرخون السابقون..).. اعاد ذكر تقسيم ابن خلدون للمؤرخين واسباب وقوع المؤرخين في الاخطاء والاكاذيب للجهل بطبائع الاحوال في العمران ــ والعمران هو الاجتماع البشري ــ وغياب الثقة والموضوعية وعدم مراعاة طبائع الموجودات.. ومباشرة يوافينا عنوان ثمرة النقد مدى التطبيق على العبر . ثم التناقض بين النظرية والتطبيق في المقدمة..))

خاتمة المطاف، لست ازعم اني قد وفيت حق الكتاب بهذا الايجاز و لا شك عندي ان هذا العرض ربما اخل بنفسه وشموله فالمجال في المجلة لا يسمح الا بقدر محدود..

ولا بد لمن يريد النماس النافع من هذا الكتاب العلمي القيم ان يقرأه بعناية وتعمق ويفرغ له باستقصاء وروية ومن يفعل ذلك انه سيوفق الى علم كثير و عمل خطير..